من أجل معرفة ملائمة –رؤية إدغار موران

د. داود خليفة
جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف، k.daoud@univ-chlef.dz

تاريخ الإيداع: 2022/07/30 **تاريخ المراجعة:** 2022/10/24 **تاريخ القبول:** 2022/10/24

ملخص

مرت المعرفة الإنسانية بحالة مرضية تمثلت في منظومة التبسيط والاختزال التي سيطرت على الفكر العلمي بعد الثورة العلمية في القرن السادس عشر، والتي اختزلت كل الواقع إلى أصغر المكونات الجزئية، وقامت بفصل حقول المعرفة بعضها عن بعض وقد حاول إدغار موران إصلاح المعرفة عن طريق الدعوة إلى فكر مركب باعتباره مفتاحا للمعرفة العلمية المعاصرة، ويمثل تحديا ودافعا للعقل للتعامل مع الشكوك والتناقضات واللايقين.

الكلمات المفاتيح: معرفة، فكر مركب،اختزالية، تعقيد، سياق، ذكاء أعمى.

For a suitable knowledge – the vision of Edgar Moran

Abstract

Human knowledge has gone through a satisfactory state of simplification and reduction that dominated scientific thought after the scientific revolution of the 16th century, which reduced all reality to the smallest partial components, and separated the fields of knowledge from each other. Edgar Moran has tried to reform knowledge by advocating complex thought as a key to contemporary scientific knowledge, challenging and motivating the mind to deal with uncertainties, contradictions and uncertainties.

Keywords**: **Knowledge, complex thought, reductionism, complexity, context, blind intelligence.

Pour une connaissance appropriée – vision d'Edgar Moran

Résumé

La connaissance humaine est passée par un état satisfaisant de simplification et de réduction qui a dominé la pensée scientifique après la révolution scientifique du 16ème siècle, qui a réduit toute la réalité aux plus petites composantes partielles et séparé les domaines de la connaissance les uns des autres. Edgar Moran a tenté de réformer la connaissance en préconisant la pensée complexe comme clé de la connaissance scientifique contemporaine, défiant et motivant l'esprit à faire face aux incertitudes et aux contradictions.

Mots-clés : Connaissance, pensée complexe, réductionnisme, complexité, contexte, intelligence aveugle.

المؤلف المرسِل: د.داود خليفة، k.daoud@univ-chlef.dz

– مقدّمة

يعد التفكير في المعرفة والبحث فيها من أهم المباحث الابستيمولوجيا المعاصرة، بهدف التحليل الفلسفي لطبيعة المعرفة ومصدرها ومدى ارتباطها بالحقيقة، وكذا البحث في مجالاتها المختلفة. ولما كانت مسألة المعرفة مسألة تتسم بشيء من التعقيد، وجب النظر إليها من هذه الزاوية، وذلك خلافا للابستيمولوجيات الكلاسيكية التي قامت على فكرة البساطة والاختزال والتجزئة والفصل، وهو ما أدى إلى تشويه الكثير من الحقائق؛ ذلك لأن مبدأ الفصل والاختزال يتجاهل التركيب والتعقيد الذي تتميز به المنظومات والظواهر المدروسة، وهو ما يؤدي بالضرورة إلى نتائج لا تتطابق مع الواقع والوقائع.

انطلاقا من ذلك، جاءت دعوة إدغار موران إلى ضرورة إصلاح الفكر، الذي يتحقق بتبني "فكر مركب" يجمع المعارف بعضها إلى بعض، فكر يراعي ما هو مركب، يربط ما هو واحد بالمتعدد، وما هو جزئي بالكلي، وهذه هي الابستيمولوجيا المركبة، وبالتالي يكون الفكر المركب هو الأساس المعرفي اللازم والملائم لطبيعة المعرفة المعاصرة.

إشكالية الدراسة

نحاول في هذه الورقة البحثية معالجة الإشكالية التالية: إلى أي مدى يمكن للفكر المركب أن يواجه التحديات التي تواجه المعرفة المعاصرة جراء الابستيمولوجيات الكلاسيكية؟ وإلى أي حد يمكن أن تساهم رؤية إدغار موران في إصلاح المعرفة وبالتالي المضي قدما في تحديثها وتطوريها؟

أهمية الدراسة

يكتسي البحث أهميته من ضرورة مساءلة المعرفة الإنسانية في معناها وطبيعتها وحدودها وعلاقاتها مع الواقع ومع الحقيقة وفي علاقة المعارف ببعضها ومحاولة الربط بينها استنادا إلى رؤية مركبة، بهدف إصلاحها من النماذج التبسيطية الاختزالية التي سيطرت على الفكر العلمي منذ القرن السادس عشر إلى نهاية القرن التاسع عشر. وبالتالي الإسهام في تطور المعرفة نحو الشمولية التي تراعي التعقيد والتركيب.

منهج الدراسة

اعتمد بحثنا على المنهج التحليلي، حيث سنقف بالتحليل على رؤية إدغار موران لمشكلة المعرفة المعاصرة، ودعوته لإصلاحها، وكذا تحليل أهم المبادئ التي ينبغي أن تقوم عليها هذه المعرفة.

1– إصلاح الفكر هو إصلاح المعرفة

يذهب "إدغار موران" إلى أنّنا عندما نتساءل عن ذواتنا "من نحن؟ "نجد أنّ هذا التساؤل يحمل في طياته تساؤلا آخر يكون مرتبطا به ارتباطا لزوميا وهو التساؤل: أين نحن؟، ومن أين أتينا، وإلى أين نحن ذاهبون؟ وهنا نجد أنّ معرفة الذوات الإنسانية لا يمكن لها أن تكون بمعزل عن العالم، لا يمكن أن ندرس الذات وأن نفهمها كمبحث قائم بذاته مستقل عن الكون، وإنما علينا أن ندرسها من خلال ارتباطها وعلاقتها به... فالإنسان والكون واحد، وإذا أردنا أن نبحث فيهما فلنبحث فيهما معا[1]، وبالتالي فنحن نعيش في الـ"عالم" الذي علينا معرفته في أطار كلي وعام.

سنظل – في نظر إدغار موران – نعاني من الإعاقة الفكرية والمعرفية، ما لم تبدأ معرفتنا من محاولة إدراك المشاكل الجوهرية للعالم، حيث يتطلب عصرنا – العصر الكوكبي – وضع كل شيء في سياقه وفي إطار النظرة

الكلية المركبة. لكن السؤال الذي يثيره إدغار موران هو كيف يمكن معرفة العالم؟، وكيف يمكن تنظيم هذه المعرفة؟.

لاشك أن هناك معاناة وصعوبات في التفكير فيما هو شمولي ومركب، وفي التفاعلات والتفاعلات المرتدة بين الكل والأجزاء وبين الأجزاء والكل، وهو بمعنى ما صعوبة التفكير في التعقيد. يجب الاعتراف في البداية أن مثل هذه المعرفة التي تراعي الشمولي والمركب وتعددية الأبعاد قد تكون من الصعوبة بمكان الوصل إليها، ومشكوك في صحتها وصوابها، لكن ذلك لا يمنعنا من السعي وراء ذلك من خلال إصلاح الفكر الذي يمكننا من تنظيم المعارف وتمَثُّل مشاكل العالم وإدراكها. وما لا يجب أن نغفل عنه هو ضرورة بناء معرفة قادرة على فهم المشاكل الكلية والأساسية،إن إصلاح الفكر ليس إلا إعادة بناء المعارف ضمن رؤية مركبة تعيد النظر في المعرفة من حيث معناها وطبيعتها وحدودها وعلاقاتها بالواقع وبالحقيقة وفي علاقتها بالمعارف الأخرى، ومحاولة الربط بين مختلف المعارف، وهذا من شأنه الحد من المعارف المجزأة أو المتخصصة التي غالبا ما تكون غير قادرة على الربط بين الأجزاء والكليات.

يتحقق إصلاح نمط التفكير من خلال الانفتاح على الفكر المركب، الذي هو وحده القادر على إبراز طبيعة الواقع المركبة، وعلى محاورة الواقع ضمن رؤى تأخذ تشابك الوقائع وتعقيدها في الاعتبار، وبالاعتراف بتنوع المعرفة وتكاثرها. ويعبر إدغار موران عن ذلك بأن إصلاح التفكير هو ذاك الذي يتيح الربط لا الفصل ويسعى لتجاوز الغموض والاضطراب وصعوبة التفكير معتمدا في ذلك على فكر منظم، وهذا هو الفكر المعقد[2].

إن المعرفة تتسم بالتعقيد التنظيمي، وهذا التنظيم المعقد يحمل في طياته الإمكانات المعرفية الكبرى التي تحافظ من جهة على الاستقلاليات البينية وعلى تعدد الأبعاد في الظاهرة المعرفية، مما يستلزم في نظر إدغار موران اللجوء إلى فكر مركب، معقد، يستطيع معالجة الاستقلالية البينية وتعددية الأبعاد وكل المفارقات، من هنا لا يكون التعقيد موضوع المعرفة، بل هو قبل ذلك منهج المعرفة[3]، إن للتعقيد قدرة على تقديم تفسيرات معرفية أصوب من تلك التي تقدمها النماذج الاختزالية الجزئية التي تفكك الواقع إلى وحدات بسيطة.

إن الفكر المركب هو شكل من أشكال التفكير يسعى إلى ربط كل مجال من مجالات الفكر (فكرمفتوح). وهذا الأسلوب من التفكير يعترض على التبسيط والاختزال من جهة، ومن جهة ثانية يرفض الانفصال بين العناصر ويحاول تقديم فهم أفضل للعلاقات التي تربط فيما بينها، على اعتبار أن النموذج المركب نموذج منفتح، متعدد، حواري، يحتوي على عناصر متداخلة مركبة تتسم بالاتساق والانسجام مع أنها لا تستبعد التناقض[4].

يحاول الفكر المركب أن يجمع ما هو منفصل، وأن يحترم المتنوع والإقرار بالواحد؛ أي يعترف بالوحدة في التنوع وبالتنوع في الوحدة، هذا النمط من الفكر يتسم بكونه:

– فكرا متعدد الأبعاد.

– منظم ونسقي، يتصور العلاقة الكل / الأجزاء.

– مبدئياً؛ ينظر للموضوع المدروس من خلال علاقته الذاتية والبيئية والتنظيمية مع محيطه الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي والطبيعي، ولا يعزله عنها.

– يتصور بيئة العمل وجدل العمل، ويكون قادرا على الإتيان باستراتيجية تسمع بالتعديل من العمل المباشر، بل وتسمح بإلغائه.

– يعترف باكتماله ويفاوض في إطار من اللايقين وخاصة في العمل، إذ لا يكون عملا إلا فيما هو غير يقيني[5].

يقتضي إصلاح الفكر تنظيم المعرفة التي تعمل على ضرورة مجابهة التشظي بين أقسام وتخصصات المعرفة المتعددة، وكسر الحدود بينها، وهو ما يمكّن المعارف من «استيعاب المشكلات الكلية والجوهرية عن طريق دمج المعارف الجزئية»[6]، وذلك بانفتاح العلوم بعضها على بعض، وضرورة قيام علم تنظيم المعرفة الذي تنوط به "معرفة المعرفة" (La Connaissance de la connaissance). حيث إن المعرفة المجزأة عاجزة عن الربط بين الأجزاء والكليات، وعاجزة أيضا عن تمثل النظرة الكلية وتعددية الأبعاد للكائنات والوقائع المدروسة.

علينا إذن، بفكر يميز بين الأشياء ويربط بينها عوضا عن فكر يفصل ويجزئ ويختزل، فكر يأخذ بالمركب والمتعدد والمتنوع وينأى بنفسه عن التبسيط والاختزال، وهذا هو الفكر المركب الذي يتخذ مسارا متعرجا، يربط الصلة بين المعارف انطلاقا من أدوات إدراكية غير موجودة في ما تعلمناه من معارف، وهذا يعني معانقة كل المناهج العلمية والمعرفية. وهذا هو المشروع الذي عمل من أجله إدغار موران وكرّس له كل وقته وجهده، يقول عن هذا المشروع: «لقد طورت كل أبحاثي في اتجاه معاكس للتجزئة وتقطيع المعرفة، مدافعا من أجل إمكانية إعادة تجميع المعرفة، وذلك في الربط بين العلوم الفيز– رياضية والعلوم الإنسانية، والعمل على إدماج الإنسان كموضوع للمعرفة وكعضو في نظام الطبيعة والكون»[7].

يدعوإدغار موراناإلى ضرورة إعادة النظر في شروط إنتاج المعرفة ذاتها، ناقدا تفكك المعارف وانفصالها، فيرى أنه ينبغي على المعرفة في سعيها لبناء ذاتها أن تستند للسياق، للشمولي، للمركب وللتعقيد، ذلك لأن «المعرفة العلمية هي معرفة شديدة التنظيم ومؤسَسَة على التعقيد. وهذا التعقيد يموضع المعرفة، يصقلها، ينظفها، يطهرها، ويعيدها إلى عناصرها الأساسية ويكشف تنظيمها الداخلي»[8]. ويعتبر هذا التعقيد الذي تتميز به المعرفة المعاصرة ويؤسسها ضربة موجهة لطموحات العلم الكلاسيكي الذي كان ينشد الوضوح والبساطة وتعزيز التجريد والاختزال، فيفكك الظواهر المعقدة لصالح مكوناتها البسيطة.

يهدف إدغار موران من وراء الدعوة إلى إصلاح الفكر، إلى البحث عن معرفة تهتم بالسياق والشمول، تراعي التنوع وتعددية الأبعاد،معرفة بعيدة عن التجزئة والفصل والاختزال، كل ذلك يستدعي بالضرورة فكر علمي جديد غير تبسيطي وغير اختزالي، قادر على خلق أدوات جامعة للاختصاصات المعرفية والربط بينها، فكر قائم على التفسير العقلاني الذي يحتكم إلى الواقع بكل ترابطاته وتركيباته وتعقيداته وتناقضاته، بهدف فهم طبيعة المعرفة العلمية المعاصرة انطلاقا من عناصر التداخل والتفاعل بين مختلف أنواعها وفروعها.

2– أمراض المعرفة

يشير إدغار موران إلى أن هناك حالة مرضية تمر بها المعرفة أو ما يعرف بـ"باطولوجيا المعرفة" (La pathologie du savoir)، وأعراض هذه الحالة نذكر منها:

1.2– العمى المعرفي

وهوما يسميه إدغار موران بـ"الذكاء الأعمى "(l'intelligence aveugle) الناتج عن الخطأ والوهم، إنه من الخطأ التقليل من مشكل الخطأ، ومن الوهم تجاهل مشكل الوهم، خاصة وأنه من الصعب الكشف عن الخطأ والوهم لأنهما لا يتقدمان أبدا إلى المعرفة بوصفهما كذلك[9]. يتعرض الفكر البشري إلى التشويش جراء الأخطاء والأوهام العديدة التي تحكم قبضتها عليه.

ينبغي علينا أولا فحص طبيعة المعرفة، لأن المعرفة ليست أداة جاهزة للاستغلال يمكن استعمالها، أنه من الضروري أن نرى في المعرفة ضرورة أولى من المفترض أن تكون ضربا من الاستعداد لمواجهة إمكانيات الخطأ والوهم الدائمة التي ما تنفك تشوش التفكير البشري، لأن المقصود هو تمكين التفكير من أن يُعِدّ العدة لكفاحه الحيوي من أجل التبصر[10].

ينتج هذا الخطأ والوهم جراء "الخطأ الإدراكي"، الناتج بدوره عن المعرفة الحسية، فالمعرفة ليست إلا ترجمة عقلية وتفسيرا لما تنقله لنا حواسنا، ومهما كانت قوة الحواس إلا أنها توقعنا في أخطاء إدراكية لا سبيل لتجنبها.

إلى جانب ذلك، فقد ينشأ الخطأ والوهم من النظريات العلمية والمذاهب الفكرية، التي تنغلق على نفسها وتقاوم كل ما لا يتلاءم معها، أو ما لا يمكن دمجه بداخلها، حيث إن «النظريات العلمية هي الوحيدة التي تقبل الخضوع لامتحان الدحض، إلا أنها تقاومه. أما المذاهب والنظريات المنغلقة على نفسها والمشدودة إلى حقائق مطلقة فإنها تبقى منيعة على كل نقد»[11].

2.2- الفصل بين المعارف

من أعراض الذكاء الأعمى الفصل بين المعارف وتجزئتها إلى تخصصات ضيقة ومنغلقة على نفسها. إن مبدأ الفصل يعمل على حجب الوقائع الشمولية والمركبة، حيث يعمل هذا المبدأ على المستوى الإنساني مثلا على فصل الإنسان وتجزئة أبعاده بين مختلف ميادين المعرفة المتخصصة، فيتناول تخصص البيولوجيا البعد الحيوي بما في ذلك الدماغ، وتجزئة الأبعاد النفسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية بعضها عن بعض داخل حقول العلوم الإنسانية، وقد أغلقت الفلسفة داخل نفسها مع أنها تفكير تأملي إنساني شمولي[12].

لقد استندت المعارف الكلاسيكية على الدراسات المتخصصة التي ساهمت في تجزئة جوانب الإنسان الثقافية والبيولوجية وحتى الحيوانية، وكمثال عن ذلك الدماغ والذهن: فالدماغ موضوعا لعلم البيولوجيا والذهن يتم تناوله من خلال علم النفس، وهنا يكون للإنسان جانبه البيولوجي والنفسي، وينبغي الأخذ بهذه الهوية المزدوجة في الاعتبار، لأن الدماغ والذهن لا يقبلان الفصل بينهما. أما الجوانب الثقافية فيتناولها الاقتصاد وعلم الاجتماع وعلم النفس والتاريخ..، وهي فروع معرفية منفصلة وينبغي الربط بينها.في هذا الصدد يقول إدغار موران: «لا أحد يستطيع أن ينفي التطور الخلاّق الذي عرفته المعارف في إطار التخصصات وبفضلها، في ميادين مختلفة خلال القرن العشرين. وقد أسفر هذا التطور في المقابل على تراجع خطير على صعيد المعرفة، لأن التخصص يلغي السياق ولا يهتم بالشموليات والمُركبات. وهو ما أبرز عقبات كثيرة أعاقت ممارسة المعرفة المناسبة»[13].

أحدث هذا الفصل بين التخصصات تفككا كبيرا على أصعدة عدة: ففرّقت الفيزياء بين المعلومة والحوسبة والذكاء الاصطناعي. وفرّقت البيولوجيا بين الجهاز العصبي والدماغ وتطوره. أما علوم الإنسان فقد فصلت وفرّقت بين الألسنية وعلم النفس المعرفي والتحليل النفسي وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا الثقافية والتاريخ، وفرّق كل من العلم والفلسفة بين المنطق والابستيمولوجيا... وفي الوقت الذي كان ينبغي على هذه التخصصات أن تتواصل فيما بينها، فإننا نراها على العكس من ذلك تماما تتباعد وتتنابذ[14].

إن التخصصات المعرفية الضيقة والمنغلقة ليست إلا فصل الموضوع عن سياقه وشموليته، وفصل علاقاته وتفاعلاته مع محيطه داخل بناء معرفي مجرد يتعلق أساسا بمبحث مجزأ، يحطم بشكل اعتباطي نسقية علاقة الجزء مع الكل، ينتهي في نهاية المطاف إلى تجريدات رياضية صورية تفصل الظواهر عن ما هو محسوس[15]. هنا تبرز الحاجة إلى إصلاح المعرفة على أساس التواصل بين العلوم والتخصصات المعرفية.

3.2– سيطرة النزعة الاختزالية

تعد النزعة الاختزالية – التي تأسست مع ديكارت – نموذجا إرشاديا هيمن على العالم الغربي، فحتّمت عليه الفصل والتفكيك واختزال المعقد بالبسيط، وأدى الامتثال لهذا النموذج إلى تجاهل التعقيد أو اعتباره مجرد وهم أو مظهر فحسب[16]. هذا النموذج المعرفي الكلاسيكي القائم على التبسيط والاختزال لا يسمح – بحسب إدغار موران – بالانفتاح على الأبعاد المركبة للواقع، فالمعارف الكلاسيكية غير كافية لاستنادها – من وحي ديكارتي – على منطق تبسيطي[17]، وبذلك يكشف هذا الأنموذج المعرفي عن حدوده وغير ملاءَمته لطبيعة المعرفة المعاصرة.يقول إدغار موران: «إلى حدود منتصف القرن العشرين، كانت معظم العلوم تعمل وفق مبدأ الاختزال، اختزال معرفة الكل في معرفة الأجزاء [...] يؤدي مبدأ الاختزال إلى اختزال ما هو مركب في البسيط، بتطبيق المنطق الآلي والحتمي الخاص بالآلات الاصطناعية على المُركبات الحية والإنسانية، ويقوم مبدأ الاختزال على إقصاء كل ما لا يقبل التكميم والقياس، مانعا إنسانية الإنسان من أهواء وعواطف [...] فيسد الطريق أمام الابتكارات»[18].

وفي سياق تحليله لهذه النزعة الاختزالية؛ يشير إدغار موران إلى أن هذه الرؤية المجزأة والمبعثرة تقوم بتشتيت ما هو مركب إلى أجزاء مفصولة عن بعضها البعض، وتفصل ما هو مرتبط، وتضفي الطابع الأحادي على ما هو متعدد ومتنوع في أبعاده، وهي بذلك رؤية عمياء تقتل كل إمكانات الفهم، وتفتح المجال للأجزاء دون النظرة الكلية، وللواحد دون التعدد، وللبسيط دون المركب.... وهذه هي تراجيديا المعرفة الإنسانية.

4.2- تراجيديا المعرفة (التناقض)

إن النجاح الذي عرفه العلم الكلاسيكي بدءاً من غاليلو وصولا إلى نيوتن يكمن في تجزئة النظم المعقدة إلى مكوناتها البسيطة لفهم كيف تتفاعل هذه المكونات بعضها مع بعض، حيث كان يتم تجزئة سلوكا لنظم إلى مكوناتها الجزئية، والذي يسمح بمعرفة هذه النظم من خلال تحليل خصائص الأجزاء الأولية، فلقد كان «العلماء لما يواجهون نوعا من التعقيد فإنهم وبشكل غريزي ينظرون إلى المكونات البسيطة للنظام وكيف تتفاعل هذه المكونات مع بعضها البعض، ثم ينتقلون للكشف عن القانون أو القوانين التي تحكم تفاعل هذه التفاعلات وسلوكها، بعد ذلك يحاولون الكشف عما إذا كانت هناك نظم أخرى تتبع نفس القوانين، وهكذا»[19].

كما كانت العلوم الكلاسيكية تقوم على الفصل بين المعارف ضمن التخصصات الضيقة، والتخصص الذي يعنيه إدغار موران هو ذلك التخصص المنغلق على نفسه، غير مندمج في إطار تصور كلي للموضوع أو داخل إشكالية عامة، وهذا ما يؤدي إلى فصل الموضوع عن سياقه وشموليته، مما يجعله مبحثا مجزأً لا يراعي علاقات وارتباطات الجزء بالكل.

وفي نظر إدغار موران أن هذا الفصل والاختزال يعبر عن تراجيديا المعرفة الإنسانية؛ فمن المعلوم أن التطور الذي شهدته المعرفة كان بفضل التخصصات وفي إطارها، لكنه لا يجب نفي أن ذلك التطور أدى إلى تراجع المعرفة؛ لأن التخصصات المعرفية الجزئية لا تعترف بما هو شمولي وما هو مركب ولا تعير للسياق أي اهتمام، وهو ما شكل – دون شك – عائقا أمام ممارسة المعرفة الصحيحة والمناسبة[20]. وهذه هي تراجيديا والتناقض اللذان تعيشهما المعرفة؛ حيث إن التقدم الذي أحرزته المعرفة هو سبب تراجعها ونكوصها، وهو ما يفتح أمامها تحديا، وهذا التحدي يتمثل بالأساس في الربط لا الفصل، التجميع لا التفريق، التعقيد لا التبسيط.

3- مبادئ من أجل معرفة ملائمة

يحدد لنا إدغار موران جملة من المبادئ التي ينبغي أن تقوم عليها المعرفة العلمية، وهذه المبادئ هي:

1.3- السياق

تتحقق فعالية السيرورة المعرفية من خلال السياق (contexte) الذي يحدد شروط دمج المعارف وحدود صلاحيتها، وكل معرفة تخلو من السياق أي معرفة قائمة على الفصل والعزل هي بالضرورة ناقصة. وعليه ينبغي وضع كل معلومة في سياق ما ومجموعة ما، وعلى المعرفة أن تتموضع داخل السياق ليتحدد معناها. إن الكلمة مثلا تحتاج إلى النص ليكون لها معنى، فالنص هو سياق الكلمة، والنص بدوره بحاجة إلى سياق ليمكن إنتاجه[21]. أي أن النص لا يكتسب المعنى إلا من خلال سياقه، فالمترجم كثيرا ما ينتقل من معنى لآخر حتى يتضح تدريجيا المعنى الملائم للسياق، فالجملة هي شعاع الكلمة، والكلمة والسياق هما شعاع الجملة الذي يتحدد بالتدرج.

وفي هذا الإطار ينبغي النظر للعلاقة بين أي ظاهرة وسياقها والعلاقات المتبادلة بين الكل وأجزائه، وفي هذا اعتراف بالوحدة في التنوع وبالتنوع في الوحدة، وهذا ما يتحقق في كل "منظومة"(système)، والتي يمكن تعريفها على أنها مجموعة العناصر المرتبطة مع بعضها أو مجموعة المتغيرات (variables) المرتبطة، وتعمل بانتظام لتحقيق هدف محدد. وعليه فالمنظومة تقوم على عاملين وهما: الأشياء والعلاقة التي تربط بين تلك الأشياء. وتعرف المنظومة أيضا بأنها كيان مؤلف من عناصر عديدة ومتحدة بعضها مع بعض، وتكون عادة في حالة مستمرة من التأثير المتبادل أو التفاعل فيما بينها.انطلاقا من هذا الأسلوب المعقد في التفكير يمكن تقويض صحة المعرفة الاختزالية، وبالتالي كل تفكير يقوم على التعقيد هو تفكير قائم على الوصل والربط من خلال التحديدات السياقية.

2.3- المركب

يرى إدغار موران أن المعرفة السائدة حاليا هي المعرفة المجزأة حسب المواد، وغالبا ما تجعل المرء غير منتبهٍ للروابط بين الأجزاء والكليات، وينبغي أن تحل محلها معرفة جديدة قادرة على إدراك الأشياء في سياقاتها[22]، إن المعرفة المعاصرة تضعنا أمام تحديات ما هو مركب، ومن ثّم فهي منوطة بها إبراز تلك العلاقة بين الوحدة والتعدد، وحيث ما تمّ وصل مختلف العناصر المكونة للكل من اقتصادية وسياسية واجتماعية ونفسية ووجدانية كان هناك مركبا. من هنا، كان من اللازم على المعرفة مواجهة ما هو مركب[23]. وباعتبار هذا المركب تلك العلاقة بين الواحد والمتعدد، والذي يتحقق من خلال ربط العناصر المكونة للكل وفق علاقة التفاعل، ينبغي أن يعوض الفكر القائم على الفصل بين الأشياء واختزالها.

من مهام الفكر المعقّد اليوم – كما يتصوّره إدغار موران – إعادة صياغة العالم وكسر الهويات الجاهزة أو النموذجيّة له، فضلا عن التوسّل بمنهج جديد يناهض المناهج الكلاسيكيّة التي قدّمتْ لنا الفيزيّاء والبيولوجيا والانثروبولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع والآداب الإنسانية مجزوءة، في الوقت الذي وجب فيه أن تَطْرحها بصيغة التعقيد، بوصفه جملة من الأحْداث والتفاعلات والارتدادات والمصادفات وردود الأفعال والتحديّات التي تحكم المعارف وحياتنا، وتتيح فرصة فهْم عميق لها يتحدّى اليقين وينظر إلى العالم من زوايّا متعدّدة[24].

إن المركب يدعونا إلى التفكير فيما يمكن أن نسميه"الانبثاق"أو "الانبثاقية" (L'émergence) حيث تكون العلاقة بين أجزاء المنظومة والكل علاقة دائرية كل يوثر في الآخر ويتأثر به، «الكل هو نوعا ما متضمن في

الجزء الذي هو بدوره متضمن في الكل. هذا التنظيم المعقد للكل يستدعي كتابة الكل في كلجزء من أجزائه مع أنها فريدة؛ وهكذا يقتضي التعقيد التنظيمي للكل التعقيد التنظيمي للأجزاء، وهذا التعقيد يقتضي بشكل متواتر التعقيد التنظيمي للكل. لكل جزء من الأجزاء فرادته بيد أنها ليست مجرد عناصر للكل؛ إنها كليات صغرى افتراضية»[25].

3.3- الشمولي

الشمولي (Le global) هو أكثر من السياق من حيث هو المجموع الذي يربط أجزاء مختلفة إما بعلاقة ارتدادية أو تنظيمية، فنجد في الكائن البشري وفي كل كائن حي ميزة حضور الكل داخل الأجزاء، إن الخلية تحمل مجموع المورثات الجينية للعضوية المتعددة الخلايا، وكل فرد يحمل المجتمع في مجموعه (معرفته ولغته وواجباته وضوابطه) [26]. وبالتالي فالشمولي لا يعني سوى تلك العلاقة بين الكل وأجزائه. إن معرفة الكل لا تتطلب معرفة العناصر التي يتشكل منها فحسب، وإنما أيضا الأفعال والاستجابات التي تحدث باستمرار بين الأجزاء والكل.

4.3- المتعدد الأبعاد

كل ما هو مركب هو بالضرورة متعدد في أبعاده(Le multidimensionnel)، وعلى المعرفة أن تعترف بهذا التعدد في الأبعاد وتراعيه. فالكائن البشري ليس هو فقط جانب بيولوجي، أو نفسي، أو اجتماعي، أو عقلاني، بل هو كل ذلك معا. ولا يقتصر بُعدُ المجتمع على التاريخ، أو الاقتصاد، أو الدين، وإنما هو كل تلك الأبعاد مجتمعة. من هنا يستحيل ليس فقط فصل الجزء عن الكل وإنما فصل الأجزاء عن بعضها. فالبعد الاقتصادي مثلا يحمل في طياته كل الأبعاد الأخرى؛ حاجات ورغبات إنسانية تتجاوز حدود ما هو اقتصادي المحض[27].

إن الاعتراف بتعدد أبعاد ظاهرة المعرفة وتعقيدها يتطلب في الآن نفسه الانتباه إلى التعقيدات والتشابكات وردود الأفعال التي تنتج المعرفة، بل وينبغي النظر أيضا إلى المفارقات والتناقضات التي تواجه هذه المعرفة. ويتطلب هذا كله – في نظر موران– فكر مركب يستطيع معالجة التشابكات والمفارقات وتعدد الأبعاد، مما يستلزم بدوره فكرا علميا تفاعليا حواريا هولوغراميا، يمكنه إقامة تواصلا ضروريا بين مختلف الحقول المعرفية.

خاتمة

نصل في النهاية إلى أنه بات من الضروري القيام بإصلاح فكري، بهدف تنظيم المعرفة، من أجل أن تحافظ على السياق والشمولي والمتعدد الأبعاد، وهي المهمة التي تصدى لها إدغار موران منذ منتصف خمسينيات القرن الماضي، وذلك من خلال بلورته لخطاب فلسفي جديد حول المعرفة العلمية غير اختزالي يراعي التعقيد والتركيب والشمولي والمتعدد الأبعاد. وبالتالي نستطيع القول إن ابستيمولوجيا التعقيد عند إدغارموران لم تكن سوى تطوير لأسس نظرية المعرفة بإدخال عنصر التعقيد في صلب هذه المنظومة المعرفية، وبالدراسة النقدية لعملية بناء وتنظيم المعرفة العلمية، ومن هنا كان اقتراح نموذج معرفي يستند إلى التعقيد، حيث يعطي هذا النموذج الإطار الإرشادي والنظري والتوجيهي والمنهجي لعملية إنتاج المعرفة.

الهوامش

1– واعر آسيا، (2022)، إدغار موران وسؤال البيئة، ضمن الكتاب الجماعي: إدغار موران: المفكر المتعدد وفيلسوف الراهن، دار الأيام للنشر والتوزيع، الأردن، ص 108.

2– إدغار موران، (2016)، تعليم الحياة: بيان لتغيير التربية، تر: الطاهر بن يحي، بيروت، ط 1، منشورات ضفاف، ص 109.

3– إدغار موران، (2012)، المنهج: معرفة المعرفة: أنثروبولوجيا المعرفة، ترجمة جمال شحيد، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ص 344 – 345.

4– داود خليفة، (2021)، إدغار موران: أزمة المعرفة والحلول، مجلة أبعاد، المجلد 8، العدد 1، منشورات مختبر الأبعاد القيمية للتحولات الفكرية والسياسية بالجزائر، جامعة وهران 2، ص 17.

5– إدغار موران، (2012)، هل نسير إلى الهاوية؟، تر: عبد الرحيم حزل، د ط، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ص 60.

6– Edgar Morin, (1999), Les sept savoirs nécessaires à l'éducation du futur, Organisation des Nations Unies pour l'éducation, la science et la culture (UNESCO), Paris, p4.

7– إدغار موران، حوار لمجلة علوم إنسانية الفرنسية، ترجمة: عمر بيشو، مجلة فكر ونقد (الكترونية)، على الرابط: http://www.aljabriabed.net/n89_09bichou.htm

8– إدغار موران، (2012)، المنهج: الأفكار: مقامها، حياتها، عاداتها، وتنظيمها، تر: جمال شحيد، ط 1، المنظمة العربية للترجمة – مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص 300.

9– إدغار موران، (2002)، تربية المستقبل: المعارف السبع الضرورية لتربية المستقبل، تر: عزيز لزرق – منير الحجوجي، دار توبقال للنشر، ط 1، الدار البيضاء، ص 21.

10– إدغار موران، تعليم الحياة: بيان لتغيير التربية، مرجع سابق، ص 95.

11– المرجع نفسه، ص 24.

12– انظر: Edgar Morin, (1991), La méthode: Les idées: Leur habitat, leur vie, leurs moeurs, leur organisation, éditions du Seuil, Paris, p18.

13– Edgar Morin,(1999), Les sept savoirs nécéssaires à l'éducation du futur,op, cit, p18.

14– إدغار موران، (2012)، المنهج: معرفة المعرفة: أنثروبولوجيا المعرفة، مرجع سابق، ص 24.

15– Edgar Morin, La méthode: Les idées: Leur habitat, leur vie, leurs moeurs, leur organisation, op, cit, p19.

16– انظر: إدغار موران، (2015)، أزمة المعرفة: عندما يفتقر الغرب إلى فن العيش، تر: جاد مقدسي، مجلة الاستغراب، العدد 1، السنة الأولى، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، ص 59.

17– Edgar Morin & Jeans Louis le Moigne, (1999), l'intelligence de la complexité, éditions l'Harmattan, Paris, (édition numérique), 1999, p53.

18– Edgar Morin, Les sept savoirs nécéssaires à l'éducation du futur, op, cit, p19.

19– Ghislane Cleret De Langavant, (2001), bioéthique: méthode et complexité, Presses de l'universitaire de Québec, Canada, p3.

20– انظر: Edgar Morin, Les sept savoirs nécéssaires à l'éducation du futur, op, cit, p 18.

21– إدغار موران، تربية المستقبل، مرجع سابق، ص 35.

22– إدغار موران، (2016)، تعليم الحياة: بيان لتغيير التربية، مرجع سابق، ص 96.

23– المرجع نفسه، ص ص37 – 38.

24– خديجة زتيلي، (2021)، إدغار موران: الفِكر المعقّد/المرَكّب والفكر الشامِل، موقع كوة الإلكتروني، على الرابط: https://couua.com/2021/05/29

25– إدغار موران، المنهج: الأفكار: مقامها، حياتها، عاداتها، وتنظيمها، مرجع سابق، ص 153.

26– إدغار موران، تربية المستقبل، ص 36 – 37.

27– المرجع نفسه، ص 37.

– قائمة المصادر والمراجع

أولا: المراجع العربية

إدغار موران، (2002)، تربية المستقبل: المعارف السبع الضرورية لتربية المستقبل، تر: عزيز لزرق – منير الحجوجي، دار توبقال للنشر، ط 1، الدار البيضاء.

1. إدغار موران، (2012)، المنهج: معرفة المعرفة: أنثروبولوجيا المعرفة، ترجمة جمال شحيد، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، بيروت.

2. إدغار موران، (2012)، هل نسير إلى الهاوية؟، تر: عبد الرحيم حزل، دط، أفريقيا، الشرقالدار البيضاء.

3. إدغار موران، (2015)، أزمة المعرفة: عندما يفتقر الغرب إلى فن العيش، تر: جاد مقدسي، مجلة الاستغراب، العدد 1، السنة الأولى، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية.

4. إدغار موران، (2016)، تعليم الحياة: بيان لتغيير التربية، تر: الطاهر بن يحي، ط 1، منشورات ضفاف، بيروت.

5. إدغار موران، (2012)، المنهج: الأفكار: مقامها، حياتها، عاداتها، وتنظيمها، تر: جمال شحيد، ط 1، المنظمة العربية للترجمة – مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

6. إدغار موران، حوار لمجلة علوم إنسانية الفرنسية، ترجمة: عمر بيشو، مجلة فكر ونقد (الكترونية)، على الرابط: http://www.aljabriabed.net/n89_09bichou.htm

7. خديجة زتيلي، (2021)، إدغار موران: الفِكر المعقّد/المرَكّب والفكر الشامِل، موقع كوة الإلكتروني، على الرابط: https://couua.com/2021/05/29

8. داود خليفة، (2021)، إدغار موران: أزمة المعرفة والحلول، مجلة أبعاد، المجلد 8، العدد 1، منشورات مختبر الأبعاد القيمية للتحولات الفكرية والسياسية بالجزائر، جامعة وهران2.

9. واعر آسيا، (2022)، إدغار موران وسؤال البيئة، ضمن الكتاب الجماعي: إدغار موران: المفكر المتعدد وفيلسوف الراهن، دار الأيام للنشر والتوزيع، الأردن.

ثانيا: المراجع الأجنبية

1. Edgar Morin ,(1999), Les sept savoirs nécessaires à l'éducation du futur, Organisation des Nations Unies pour l'éducation, la science et la culture (UNESCO), Paris.

2. Edgar Morin, (1991), La méthode: Les idées: Leur habitat, leur vie, leurs moeurs, leur organisation, éditions du Seuil, Paris.

3. Edgar Morin & Jeans Louis le Moigne, (1999), l'intelligence de la complexité, éditions l'Harmattan, Paris, (édition numérique), Paris.

4. Ghislane Cleret De Langavant, (2001), bioéthique: méthode et complexité, Presses de l'universitaire de Québec, Canada.